القسم الأول

الزهد الإسلامي

دوافعه – مدارسه – خصائصه

obeikandl.com

obeikandl.com

البـــــاب الأول

التعريف والعوامل والشيوع

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصـــل الأول

التعريف ومتعلقاته

تمهيد

الزهد بمعنى التعبد والتقلل: نـــزوع يظهر لدى النفوس الغنية والهمم الشامخة التي تتعدى صغائر الأمور إلى أرفعها، وتتجاوز الرغبات الدنيا إلى الآمال العُلا، وفي سبيل ذلك تتحمل أفدح المشقات وتركب أصعب المخاطر، ومن هنا كان الزهد سمة النفس القوية والقادرة لا الساقطة الهزيلة. وكان عنوانًا على ترفعها لا ترديها.

أي إن نفس الزاهد المتطلع إلى الغايات الأرقى أكثر ثراء وغنى من نفس النَّهِم المقبل على طلب الدنيا ولذاتها؛ باعتبار أن ما ينالـــه صاحب الهمة البعيدة يبقى وما يحصل عليه طالب الدنيا يفنى، وأيضًا فشرف السبيل من شرف الغاية، فالزاهد ونفسه وسبيلـــه وغايته أشرف من طالب هذه الحياة الدنيا.

ولما كان الحال كذلك كان الزهد فضيلة نفسية عامة أصيلة تدعو إليها الملل كما تدعو إليها النحل، أو تحث عليها الأديان كما تحث عليها الأفكار والفلسفات، وهذا هو السر في أننا نرى الزهاد بين كل أمة من الأمم وقطر من الأقطار في أي عصر من العصور وتحت أي لون من ألوان الفكر أو الدين، كل يأخذ من أي حكمة تنسكية صورة ملائمة فتتلقفها الأرواح الموهوبة النادرة، وتسير عليها فتجعلها جديرة بالخلود.

وسواء أكانت تلك الصورة دنيوية أم أخروية، بدنية أم روحية فإنها وجدت في مجال انتشارها من اعتنقها سواء بين قدامى الهنود أم الفارسيين أم المصريين أم

العرب قبل الإسلام كما هو حال ورقة بن نوفل، وعبيد اللـــه بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن حويرث.

وفوق هؤلاء فإن نفوس الزهاد المسلمين الذين ميز لهم القرآن بين الوجود المتغير الزائل وكشف لهم عن بعض حقائق الوجود الباقي سعت على متن الزهد إلى الازدياد من الكشف عن الأسرار والقرب من الذات الإلهية، وعمدت إلى تقوية الصلة بينها وبين ربها.

وما دام الزهد فضيلة نفسية يبعثها فكر أو دين عند ذوي الهمم القوية فإن الأمر الذي يجب التسليم به أنه وإن تشابه الزهد بين اللاحقين والسابقين في بعض وسائلـــه فلا يعني أن المتأخر أخذ عن السابق؛ لأنه ليس مقصورًا على أمة أو عصر أو لون من ألوان الفكر أو الدين، هذا حكم يخص الزهد من الناحية العامة.

وثم حكم آخر يخص الزهد الإسلامي مؤداه أنه ليس عمليًّا؛ ولكن تطرق رجالـــه من العمل إلى النظر وهو ما سنبينه مع كثير من الأحكام الخاصة به في هذا القسم من البحث.

هل التعريف بالحد أو بالرسم؟

قبل أن نعرض هنا لتعريف الزهد بل ولأي تعريف من تعريفات المسائل الخاصة بالحياة الروحية ينبغي أن نلفت النظر إلى التعريفات من بدايتها إلى نهايتها غالبًا لا تكون بالحد؛ لأن التعريف على هذا النحو عند من تتوارد عليهم أحوال مختلفة يبدو عسيرًا.

ولذا فإجابتهم عن الأشياء ليست بالجنس والفصل، وإنما هي بالأسباب الباعثة والمعاني الموجبة، أو بالرسم والعلامة المميزة، أو بما يحدثه الشيء في النفس

من نتائج وآثار تختلف من سالك إلى سالك، ومن وقت إلى وقت لدى فرد بعينه، وبالتالي: فما عبر كل منهم إلا عن وقته، وما أشار إلا إلى حده الذاتي، أي الثمرة التي وجدها في نفسه كما يقول القشيري[1].

ولما كانت غاية السالكين تربوية تهذيبية نفسية؛ فإن التعريف بالثمار والأحوال أتم بلا خلاف[2] عند أتباع الحياة الروحية الذين يرون أنَّ الأمور لا فائدة فيها إلا أن يكون لها أثر في الشخص؛ لأنها مطلوبة لذلك لا لنفسها، فكل فضيلة أو مقام من المقامات أو حال من الأحوال أو عبادة أو شعيرة؛ رغم أن كلا منها ذو قيمة ذاتية لا تنكر؛ لكنها تظل عديمة الفائدة والأثر ما لم تدخل رحاب التجربة النفسية التي يقوم بها السالك.

وماذا تجدينا تعريفات الشعائر الدينية إذا لم نقم بتطبيقها؟ كما أن النظر المجرد ليس لـــه تقدير حقيقي إلا بمقدار ما يقدم للعمل من علم وأسلوب يصححانه؛ ليعود أثر ذلك على تقويم الزاهد أو الصوفي، وعلى تهذيب نفسه التي هي محور اهتمامه وصولاً إلى ربه الذي هو مطلوبه، ومن أجل هذا فقد عبروا عن الأشياء بما يجدونه في أنفسهم وبما يحسه كل واحد منهم.

وهذا النمط نجده في القرآن والسنة إذ دأبا على الحديث عن الثمار والفوائد التي تعود على المسلم من وراء الإيمان، أو العمل والاستقامة أو الأخلاق والفضائل كما يبدو لكل قارئ آيات الفرائض والعقائد والأخلاق، وأحاديث الإيمان والإحسان والنسك والمستحب من السلوك؛ أي إن التعريفات بالحد لم تكن هدفًا للوحي بقدر ما كانت النفس البشرية هي المقصودة بالهداية والتربية والإسعاد، وإلى هذه النظرة توجه رجال الحركة الروحية في حديثهم عن الأشياء

---

(١) الرسالة: باب الزهد.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية ج٢ ١٨٨

الخاصة بهم.

الأصالة اللغوية لكلمة الزهد

يجدر بنا أن نقف قليلاً عند مادة تلك الكلمة ومعانيها بحسب الوضع اللغوي التي جاءت على لسان الزهاد، فنرى أنها استعملت استعمالين أحدهما حقيقي والآخر مجازي:

أما الحقيقي: فيقال التزهيد في الشيء أو عن الشيء خلاف الترغيب فيه وزهَّده في الأمر رغَّبه عنه، والزهادة في الأشياء عمومًا ضد الرغبة فيها، فقد ارتبط الاستعمال الحقيقي بصرف الرغبة عن الشيء إلى غيره كما قال سبحانه عمن اشتروا سيدنا يوسف: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[يوسف: ٢٠] أي على غير رغبة فيه.

ويقال في الاستعمال المجازي: فلان يتزهد أي يتعبد، ويدور معنى الكلمة بحسب هذا الاستعمال حول القلة والحقارة كما قال رسول الله: «**ليس على عبد حساب ولا على مؤمن مزهد**» لقلة ماله، وكما قال خالد لعمر بن الخطاب: إن الناس قد اندفعوا في الخمر وتزاهدوا الحد أي استخفوا به؛ لقلته ولكن الكلمة برغم إطلاقها في اللغة على معان كثيرة إلا أنها شاعت على الزهد في الدنيا خاصة؛ ولذا عرفت وضعًا بأنها ضد الرغبة والحرص على الدنيا[1].

وإنما سقت هذه النبذة التي خلفت وراءها الكثير من الاشتقاقات؛ لأبين أن الكلمة أصلية في اللغة العربية غير قادمة إلى البيئة الإسلامية من خارجها. وأنها

---

(١) فريد وجدي: كنز العلوم واللغة ج٦: ٥٣١ وله أيضا دائرة المعارف ج٤: ٦١٩، وابن منظور الأفريقي لسان العرب ج ٤: ١٨٠-١٨١، والفيروزأبادي القاموس ج١: ٣٠٩ وتاج العروس ج٣: ٣٦٥ والمقري المصباح المنير ج١: ٢١٦.

مستعملة بالاستعمالين العربيين في الكتاب والسنة وأنها مصدر الفعل زَهَدَ خلافًا لقول ماسينيون: إنها صفة، وإنما استعملت في القرآن بعيدة عن المعنى المراد لها[1] مما يجعلنا منذ الحروف الأولى في هذا البحث نترقب بحذر ما يقولـــه هؤلاء المستشرقون الذين يخطئون في ألف باء الأشياء عن عمد أو جهل.

كما أنني تعمدت تلك العجالة لما لاحظته من ارتباط تعريفات الزهاد بالمعنى اللغوي ودورانها من حولـــه نصًّا ومقتضًى؛ حيث فهموا من التعريف الوضعي أنه يعني تهذيب النفس وتعديل الحرص من الأدنى للأعلى، وقصر الأمل في الدنيا وتوجيهه إلى الآخرة، وذم هوى الأولى الفانية ومدحه الباقية.

وأرادوا من وراء هذه التصفية النفسية أن يتفرغ القلب للعبادة بلا شغل أو حجب ، وإن كانت التصفية والتفرغ لا يتمان إلا بعلم يُؤْثِرُ -بموازينه المضبوطة- النعيم السرمدي على النعيم الفاني، وما يزال يبعث أثرًا في النفس؛ حتى يحدث هيئة يقينية تجعل العبد يتجه بكليته إلى اللـــه ويؤثره عما سواه، ويصير الزهد لـــه سجية، وبذا ارتبط تعريف الزهد بقطع الرغبة وتربية النفس، وجلاء القلب والعلم أو الثقة في الله، وهو ما نتناولـــه في النقاط التالية.

معالجة الرغبة

أما ما يتصل بصرف الرغبة عن الدنيا كما ينص الشطر الأول من التعريف اللغوي فإن من أقدم التعريفات التي يشير إليها قول الإمام علي حين سئل عن الزهد: هو أن لا تبالي من أكل الدنيا من مؤمن أو كافر[2]، وعدم المبالاة لا يتحقق إلا بإماتة الرغبة في الدنيا،وإحلال الزهد محلها إحلالاً يُمْحى معه الفرح

(١) دائرة المعارف الإسلامية م العاشر ٤٥١-٤٥٢.

(٢) الكلابذي التعرف: ٩٣.

والنوال واليأس من الفقد كما قال سبحانه: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[الحديد:٢].

وحوَّل الحسن البصري (١١٠هـ) عدم المبالاة إلى بغض لكل ما في الدنيا فيقول: الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وما فيها[١].

ونقل محمد ابن السمَّاك (١٨٣هـ) حالة البغض إلى الفرح بتحويل الدنيا عن الزاهد؛ لأن الشر كله في الدنيا والخير كله في الزهد، وبهذا ظل الزهاد من الصحابة والتابعين يزحزحون الرغبة ويعالجونها تقويمًا وتهذيبًا؛ حتى وصلت أخيرًا إلى حال السرور بإدبار الدنيا عن السالك حسبما ذاق ذلك ابن السمَّاك.

وهذا التنقل الشعوري بين آثار الزهد يُطْلعنا على أنَّ الزهاد كانوا أرق حسًّا وأدق تعبيرًا عما تركه الزهد في عمق نفوسهم، وكانوا أخلص لقاعدة التعريف بالآثار المستفادة من التطبيق؛ عن أبي البركات ألوسي زادة، والغزالي، وطاش كبرى زادة الذين عادوا إلى النص اللغوي وهو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ووقفوا عنده[٢].

الأمر الذي يفتح أعيننا على حقيقة هامة مؤداها أن أرباب الأقوال كانوا أكثر تجربة من المؤلفين الذين شُغلوا بالاصطلاحات؛ لجفاف منبع المذاقات، وقلة الإحساس بآثار التطبيق الكامل، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنَّ أي تطور لمعنى من المعاني لا يعني أن ذوق التابعين ومن تلاهم كان أرق من الصحابة؛ لأننا سنشم فج الروحية الصادقة يعطر أنوفنا وقلوبنا صادرًا من رياض الصحابة.

كل ما في الأمر أن التابعين ذاقوا ما تحدثوا عنه في قطع الرغبة وتحويلها إلى

---

(١) القشيري: الرسالة: ٦١.

(٢) غالية المواعظ ج٢: ١٣٧ والإحياء ج٤: ١٨٧ ومفتاح السعادة ج١: ٤٨٢.

السرور؛ على سبيل المثال كنتيجة لرد الفعل للمجتمع الذي عاش فيه التابعون والذي امتلأ إقبالاً على الدنيا وخوضًا في الفتن، وبهذه الملحوظة نفهم عبارة الحسن البصري السابقة الداعية إلى بغض الدنيا بمن وما فيها ، إذ من المؤكد أنَّه لا يقصد الصالحين الذين مدحهم القرآن وحثت السنة على صحبتهم وجالسهم البصري، كما أنه لا يرمي إلى بغض الآيات التي هي آثار دالة على القدرة، وإنما يهدف إلى بغض الفعل المذموم من البشر والزينة التي تصرف العبد عن الآخرة من الدنيا.

الزهد والتصفية من خلال التعريف

تناول الشطر الأول من التعريف اللغوي للزهد الحث على صرف الرغبة عن الدنيا كما نص الشطر الثاني على قطع الحرص عليها، والشطران معًا يحملان طابعًا نفسيًّا صرفًا مما يدل على عمق الصلة بين الزهد والنفس، وبَانَ كيف عالج الصحابة والزهاد الشطر الأول بما لا يخرج عن الدائرة النفسية.

وها نحن مع الشطر الثاني نراه يقترب أكثر من آفات النفس وبيانها، وكيف أن الزهد عامل قوي لقلعها وقمعها، فيحذِّر أبو بكر -رضي اللـــه عنه- من العجب بشيء من زينة الدنيا؛ لأن من فعل ذلك مقته اللـــه حتى يفارق تلك الزينة[1].

كما حذر الإمام علي من اتباع الهوى وطول الأمل؛ لأنهما ينسيان الآخرة، ومن تخلص من هذه الآفات بالزهد صارت نفسه غنية[2] ولو كان لا يملك شيئًا حسبما صرح عبد اللـــه بن مسعود، ومثل هذه الأقوال في رحاب تعريف الزهد

(١) الشعراني : الطبقات الكبرى ج١: ١٦، ١٧.

(٢) ابن الجوزي: صفة الصفة ج١ : ١٦٢.

توقفنا على مدى اهتمام الصحابة بدراسة النفس وآفاتها وعلاجها، وعلى هذا سار الزهاد مطورين أقوالهم تطويرًا يتناسب مع ما يجري في المجتمع من ناحية، ومع ما تفرضه سنة التطور العلمي من ناحية أخرى.

وقد يجتمعان في تعريف ابن شهاب الزهري (١٢٤هـ) ذي الطابع النفسي إذ يقول عن الزهد: أما إنه ليس تشعيث اللمة ولا قشف الهيئة؛ ولكنه صرف النفس عن الشهوة[١] ويقول عبد الله بن المبارك (١٨١هـ): كن محبًّا للخمول كارهًا للشهوة ولا تحب من نفسك أنك تحب الخمول. ودعواك الزهد من نفسك يخرجك عن الزهد[٢].

والعبارتان تفصحان عما بدر في المجتمع من الادعاء والتزي بزي الفقراء تشبهًا بهم وجلبًا للشهرة والسمعة وهما من الشهوات التي يجب صرفها؛ ليتصف السالك بالخمول بلا هوى أو حب للمحمدة، كما تعطينا صورة لتطور معنى الزهد تطورًا بقرب الزاهد إلى حال الفناء؛ لأن من غاب عن رؤية خموله وزهده فقد فني عن نفسه وعما يتصف وقتها به من صفات، وهذا اللون من التطور لا يخضع لردود الفعل الاجتماعية إنما ينبع من مذاقات السالك أثناء تجربته النفسية.

وقد ينفرد التطور التابع لحركة التقدم العلمي بلون خاص في التعريف كقول سفيان بن عُيَيْنَة (١٩٨هـ): الزهد ثلاثة أحرف زاي وهاء ودال فمعنى الزاي: إشارة إلى ترك زينة الدنيا، ومعنى الهاء: أن تترك هوى النفس، ومعنى الدال: أن تترك الدنيا بأسرها[٣] وهو تعريف بالمعنى المتفق مع كل حرف من أحرف كلمة زهد والذي ارتبط أيضًا بالمعنى النفسي، مما يقطع بأن الزهاد طوروا تعريفاتهم

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١: ٣١٠.
(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى ج١: ٥١.
(٣) عماد الدين الأقوى: حياة القلوب هامش قوت القلوب ج١ : ١٢٤.

للزهد شيئًا فشيئًا، وأنهم وضعوا أسسًا قوية لأفكار وأذواق العصور التي تليهم.

ارتباط الزهد بالثقة واليقين

وبعدما حوَّل الزهاد الرغبة من الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، وعالجوا بذلك آفات نفسية، وعنت لهم بعض المذاقات الدالة على أن الزهد جر عليهم معارف نظرية؛ وصلوا بعد هذا إلى تجريد القلب من شواغل النفس؛ ليصفو من الكدر ويسلم من الحجب ويصير مستحقًا لنظر الله الوارد في الحديث الشريف «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» وليكون قلبًا سليمًا كما تشير آية الشعراء (٨٩).

وإلى هذا الحد ينعطف التعريف منعطفًا يقينيًا يركن فيه السالك إلى الثقة بما عند الله والرضا بما قسم دون النظر إلى ما في يده أو يد الخلق، وهو يقين يوجه الزاهد نحو خزائن الغيب ويصرفه عن عطاء الشهادة وما تحوي من أسباب.

وإلى هذا المسلك وصل أبو الدرداء، وأويس القرني، وعمر بن عبد العزيز؛ حيث ركنوا إلى ما عند الله وعنفوا من خالط الشك قلوبهم[١] فلم يفروا إلى الله زاهدين؛ لضعف يقينهم، وبناء على هذا نرى مسروق بن عبد الرحمن يُعرِّف الزهد بأنه: الثقة بالله[٢]، ويضيف يوسف بن أسباط: ثقة تقطع الأسباب بين العبد وربه بحيث لا يرى الزاهد واسطة بينه وبين عطاء الله ولايشاهد إلا الله فاعلاً، وحتى أضحت تلك الثقة رأس مال الزهاد كما عند أبي حازم الأعرج (١٤٢هـ)[٣]. وصح قول الفضيل بن عياض: أصل الزهد في الدنيا

---

(١) خير الدين ألوس زيادة: غالية المواعظ ج٢: ١٣٦ والشعراني في الطبقات ج١: ٢٤.
(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج٢: ٢٩-٣٦، والرسالة: ٦١، والتعرف ٩٣.
(٣) عيون الأخبار ج٢: ٢٩-٣٦.

الرضا عن اللـــه تعالى[1].

وتعتبر تلك التعريفات وما يدور فيها من ألفاظ الثقة والرضا واليقين في اللـــه والافتقار واليأس والفرار من العبد ممثلة لِقمَّة ما وصل إليه الزهاد من ذوق ثمار الزهد والحديث عن نتائجه وآثاره في نفوسهم، تلكم الحالة التي هي روح ومعنى الحال الذي أطلق عليه الصوفية فيما بعد حال الفناء؛ خصوصًا إذا ما ذكرنا قول عطاء بن رباح لعبد الملك بن مروان حين تمنى الخليفة أن يسألـــه هذا الزاهد فقال: ما لي إلى مخلوق من حاجة[2].

وقال إبراهيم بن أدهم لزاهد قابله: من أين تعيش؟ فقال: ليس لي بهذا علم. اسأل الرزاق[3] ولا خلاف بين حال الثقة هذا أو اليقين وبين حال الفناء عِنْدَ الصوفية إلا من حيث إطلاق المصطلح فقط، وهو أمر لا يعيره الذوقيون كثير التفات إذا ما صح المعنى واستقامت الحقيقة؛ ولا شك أن سندهم في الجانب النفسي واليقيني ما روي عن رسول اللـــه ﷺ في الحديث الذي رواه فضالة: «**أفلح من هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع به**»[4]

وروى الترمذي بسنده عن أبي ذر عن رسول اللـــه ﷺ أنه قال:«**الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال؛ ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله**»[5] وخُيِّر النبي بين الدنيا وما عند اللـــه فاختار ما عنده سبحانه وتعالى.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١ : ٣١٠-٣١١.
(٢) ابن عربي: محاضرة الأبرار ج١: ١١٧.
(٣) تاريخ التصوف الإسلامي: زكي مبارك ج١: ٤١٧ نقلا عن تذكرة الأولياء للعطار.
(٤) رواه الترمذي والنسائي من صحيح.
(٥) التاج عن الترمذي ج٥ : ١٦٣.

وفي ذلك يقول اللـــه تعالى ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر: ٣٦]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[الذاريات: ٥٨].

obeikandl.com